﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النّور: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأخسرون أعمالًا الذين سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعًا

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة أعمالَ المؤمنين في الدُّنيا مِنَ الذِّكْر والتّسبيح والانشغال باللّه ربِّ العالَمين؛ فلا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر اللّه تعالى، وبيّنتِ الجزاءَ المُعَدّ لهم بأنّه أحسنُ الجزاءِ؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان أعمالِ الكافرين التي يحسبونها قرباتٍ عند اللّه تعالى، وما هي بمُغنيةٍ عنهم شيئًا؛ لأنّها كالسّراب إذا ذهبتَ إليه لا تجدُه شيئًا، وفي ذلك الخُسرانُ المُبين.

ومنها: لمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيما تقدَّم حالةَ المؤمنين، وتنويرَه قلوبَهم بنوره وهدايته في الدُّنيا، وفي الآخرة يجزيهم أحسنَ ما عملوا ويزيدُهم من فضله؛ أتبعَ ذلك ذِكْرَ المَحرومين من هذا الفضل، وبيّن أنَّ الكافر يكون في الآخرة في أشدِّ الخُسران، وفي الدُّنيا في أعظم الظُّلمات، وضَرَبَ ﷻ لِكُلٍّ واحدٍ منهما مثلًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَرَابِۭ﴾: (سرب): أَصلٌ مُطَّرِدٌ، وهو يَدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأَرضِ[2]، ومنه السَّرابُ الَّذي يَجْري على وجهِ الأَرض، كأَنَّه الماءُ، وهو نصفُ النَّهارِ[3]؛ وسُمّيَ السَّرابُ سَرابًا؛ لأَنَّه يَسْرُبُ

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 187، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 191، والفرماويّ، السَّهل المُفيد في تفسير القرآن المجيد، ص: 443.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرب).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).

سُروبًا؛ أيْ: يَجْري جَرْيًا، يُقالُ: سَرَبَ الماءُ يَسْرُبُ سُروبًا[1]، قال الرّاغب: "السَّرابُ: هو اللّامع في المفازة كالماء؛ وذلك لانسرابه في مرأى العين"[2]، وقد يُخَصُّ ما بَيْنَ أوَّل النَّهارِ إلى الضُّحَى باسم الأَلّ ثُمَّ السَّراب، وعلى هذا قولُ أكثرِ أهلِ اللُّغةِ[3]، والعربُ يتسامحون في إطلاقِ أحدِ اللَّفظيْنِ مكانَ الآخَرِ[4]؛ وعليه فالسَّرابُ في الآية هو: الشُّعاع الَّذي يتراءى للنّاظر من بعيدٍ كأنَّه ماءٌ[5].

2) ﴿بِقِيعَةٍ﴾: (قوع): أَصلٌ يدُلُّ على تَبَسُّطٍ في مكانٍ[6]، مِنْ ذلكَ القاع: ما انبسط منَ الأَرْض، وفيه يكون السَّراب نصفَ النَّهار[7]، قالَ أَبو الهَيْثَم: القاعُ هو الأرضُ الحُرَّةُ الطّينِ الَّتي لا يُخالِطُها رَملٌ فيَشْرَبُ ماءَها، وهي مُستَويةٌ ليسَ فيها تَطامُنٌ ولا ارتفاعٌ، وإذا خالطَها الرَّملُ لم تَكُنْ قاعًا؛ لأَنَّها تَشْرَبُ الماءَ فلا تُمسِكُه[8]، والألِفُ في الأَصلِ واوٌ[9]، والمقصود بالقيعَةِ في الآية: الأرضُ المُنبَسِطةُ، ليسَ فيها رُبًى، وهوَ وصْفٌ للسَّراب كاشِفٌ؛ لأَنَّ السَّرابَ لا يتكوَّنُ إلّا في قيعَةٍ[10].

3) ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: (ظما): أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّةِ ماءٍ، مِنْ ذَلِكَ: الظَّما، غيرُ مهموزٍ: قِلَّةُ دَمِ اللِّثَةِ[11]، أو ذُبولُ الشَّفَةِ مِنَ العَطَشِ، وكلُّ ذابلٍ مِنَ الحَرِّ ظَمِ وأَظْمَى[12]، ومِنَ المهموزِ: الظَّمأُ، وهو العَطَشُ، يُقال: ظَمِئَ يَظْمَأُ فهو ظَمآنُ[13]، وقومٌ ظِماءٌ؛ أيْ: عِطاشٌ، والأنثى: ظَمأى، وظَمِئْتُ إلى لقائك؛ أي: اشتقت، والظِّمءُ: ما بينَ الوِرْدَيْن، وهو حبس الإبل عنِ الماء إلى غاية الوِرْدِ[14]، والمُراد بـ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ في الآية: العطشان.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرب).
(2) الرّاغب، المُفردات: (سرب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 252.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 132.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوع).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوع).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 252.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظمأ).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (ظمأ).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (ظمأ).
(14) الجوهريّ، الصّحاح: (ظمأ).

4) ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾: أَصْلُ (وفى): كلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتْمامٍ، ومنه الوفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أَوْفَى، فهو وفٍّ، ويقولونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوفَيْتُهُ؛ إذا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَتْرُكْ منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[1]، وحقيقةُ التَّوْفيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافيًا؛ أيْ: غيرَ مَنْقوصٍ، ومعنى قوله: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾: أعطاهُ جزاءَ كُفْرِهِ وافيًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المَحرومون من نورِ اللهِ

في هذه الآيةِ يضرِبُ اللّه تعالى مَثَلًا لأعمالِ الكفّارِ، فيقولُ سبحانه: والذين كفَروا برَبِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفَعُهم يومَ القيامةِ لا ثوابَ لها، وسيجدونها مثلَ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً حتّى إذا جاء إلى موضِعِه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا ممّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ يظُنّونَ اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفَعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللّه؛ فلا ينتَفِعونَ بها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمِرصادِ، فوفّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللّهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صدرِ الآيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

إردافُ البِشارةِ بالنَّذارةِ على عادةِ القرآنِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ عطفَت حالَ أعمالِ الكافرين على أحوال المؤمنين، فهو عطفُ القِصّة على القِصّة ممّا ينساق إليه ما قبلَه؛ كأنَّه قيل: الذين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 253.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 326، 327، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 282، 283، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 569.

آمنوا أعمالهم حالًا ومآلًا كما وُصِف، والذين كفروا أَعْمالُهُم التي يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم منَ العذاب، كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً[1]؛ فلمّا جرى ذِكْر أعمالِ المُتَّقين منَ المؤمنين وجزائهم؛ أعقب ذلك بضدِّه من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قُرُباتٍ عند اللّه تعالى، وما هي بمُغنيَةٍ عنهم شيئًا على عادة القرآن في إردافِ البِشارةِ بالنَّذارةِ[2].

بلاغةُ المقابلةِ بين المؤمنين وأعمالِهم والكافرين وأعمالِهم:

ليكونَ المؤمنُ بين ترغيبٍ وترهيبٍ، وخوفٍ ورجاءٍ

في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ تنديدٌ بالكفّار وأعمالِهم مُقابلَ التَّنويهِ بالمؤمنين وأعمالهم في الآيات السّابقة جريًا على الأسلوب القرآنيّ في المُناسبات المُماثِلة، وهذا من لطف اللّه وكرمه وحِكمته ورحمته؛ حيثُ جرت سُنَّتُه في كتابه ألّا يَذكرَ التّكذيبَ منَ الكافرين والمنافقين، إلّا ويَذكر التّصديقَ منَ المؤمنين، ولا يذكر الإيمانَ إلّا ويَذكر الكفرَ، ولا يَذكر الجنّةَ إلّا ويذكر النّارَ، ولا يذكر الرّحمةَ إلّا ويَذكر الغضبَ والسّخطَ؛ ليكونَ المؤمنُ راغبًا راهبًا، خائفًا راجيًا؛ فالآيةُ معطوفة على ما قبلَها عَطْفَ تعقيبٍ وتَمثيلٍ ومُقابلة[3].

سِرُّ تقديم ما يتعلّق بأحوال الآخرة مع الكافرين:

تبكيتُ الكُفّار وإبرازُ حسرتهم على أعمالهم التي قَدّموها

النّاظِر في هذه الآياتِ القرآنيّةِ التي تتحدّثُ عن أحوالِ الكافرين في الآخرةِ، بَدءًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، يجد أنّها ضربتْ مَثَلَين للكافرين وأعمالهم؛ **أحدهما**: يتعلّق بالآخرة الوارد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ الآية، **والثّاني**: يتعلّق بأحوالهم في الدُّنيا وما هم فيه منَ الحَيْرَة والضَّلال؛ وهو

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 392.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.
(3) دَرْوَزَة، التَّفسير الحديث: 8/ 428، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 398.

المذكور في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ الآية؛ فقدّمت الآياتُ القرآنيّة ما يتعلّق بأحوال الكفرة في الآخرة؛ لتبكيتِهم وإبرازِ حسرتهم على أعمالهم التي قَدّموها وكانوا يحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا، وفي ذلك من صدمة قلوبهم وعقولهم ما لا يمكن وصْفُه؛ لأنهم كانوا يرجون ثوابَها؛ فلمّا طلبوها وجدوها سرابًا؛ لأنّها لم تُبْنَ على الإيمان الصّحيح، أمّا في جانب أهل الإيمان؛ فقُدِّم ما يتعلّق بأحوالهم في الدُّنيا منَ أعمالِ الخيرِ، من ذِكْرٍ وتسبيحٍ وصلاةٍ، ثمّ ذُكِر بعدَ ذلك الجزاءُ في الآخرةِ على ترتيبِ الوقوعِ، فالأعمالُ أوّلًا، والجزاءُ ثانيًا.

نُكْتَةُ عَدَمِ جَعْلِ المُسنَد إليه أعمال الكافرين:

الكُفرُ يُبطلُ كلّ الأعـمـال، ولـو كـان في ظاهرها الصّلاحُ

جَعَلَ النَّظمُ الكريمُ المُسنَدَ إليه ما يدلُّ على ذواتِ الكافرين، ثُمَّ بنى عليه مُسنَدًا إليه آخَر وهو ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ولم يجعلِ المُسنَد إليه أعمالَ الذين كفروا من أوَّلِ وهلةٍ لما في الافتتاحِ بذِكْر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من التَّشويق إلى معرفة ما سيُذْكَر من شؤونهم؛ ليَتَقرَّر في النَّفسِ كمالَ التَّقرُّر، وليَظْهَر أنَّ للذين كفروا حظًّا في التَّمثيل بحيث لا يكون المُشَبَّه أعمالَهم خاصَّة[1]، فكان نظمُ الكلامِ يقتضي أن يُقال: (وَأَعْمالُ الَّذينَ كَفَروا كَسَراب بِقيعَةٍ)، ولو قيل ذلك لكان بليغًا، لما فيه منَ الإيجاز، ولكن تعبير القرآنِ أبلغُ؛ لأنَّ الحُكم على هذه الأعمال بأنَّها باطلةٌ فاسدةٌ ليس لكونها كذلك في ذاتها؛ ولكن لكونها أعمالَ أولئك الذين كفروا، فلا شيءَ يُبطلُ العملَ ويجعلُه فاسدًا عديمَ النَّفع مثلُ الكفر، ولا شيءَ يُبقي عليه، ويجعلُه مُثمِرًا نافعًا مثلُ الإيمان، وهذا المعنى ظاهرٌ في كثيرٍ منَ الآيات القرآنيّة.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

إيثارُ التَّعبيرِ بالكُفر دونَ الظُّلم أو الفِسْقِ:

دلالةُ لفظِ الكُفْرِ على سَتْرِ النّورِ الإلَهي

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ هذا الفريق بالكُفر دون الفِسْقِ أو الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾؛ لما سبق من ذِكْر النّور الدّالّ على هُدى الله في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: 35]، ثُمَّ ذَكَرَ مَنِ اهتدى بهذا النّور من عباد الله الصّالحين؛ فناسبَ في مُقابل ذلك ذِكْرُ الكفر الدّالِّ على مَن سَتروا ما انتشر من نور الله بما لزموه منَ الضَّلال[1].

غَرَضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

الإشارةُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ

في الإتيانِ بالموصولِ وصلتِه في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وهو أنَّه من جزاءِ كُفرهم بالله، على أنَّه قد يكون عنوانُ الذين كفروا قد غلبَ على المشركين من أهلِ مَكَّة؛ فيكون افتتاحُ الكلام بهذا الوصفِ إشارةً إلى أنَّه إبطالٌ لِشيءٍ اعتقدَه الذين كفروا[2]، وهو أنّهم يفعلون أعمالَ خيرٍ؛ من سُقيا الحجيج، وإطعام المساكين، ونحو ذلك منَ الأعمال التي يظنّونها من أعمالِ الخيرِ؛ فجاءَ التّعبيرُ باسم الموصول وصلته لإبطال هذا الاعتقاد.

بلاغة التّشبيه التّمثيليّ في الآية:

بُطلانُ توهُّمِ الكافرين نَفْعَ أعمالِهم، مع شِدَّة الحاجةِ إليها

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حيثُ شَبَّهَ تعالى أعمالَهم في اضمحلالها وفقدانِ ثمرتِها حينما يكونون في أشدّ الحاجةِ إلى ذلك النّفعِ، بحالةِ ظمآنٍ يَرى السَّرابَ في مكانٍ منخفضٍ فظنَّهُ ماءً، فقصدَه وأتعبَ نفسَه في الوصول إليه، حتّى إذا جاء موضِعَه الذي تخيّلَه فيه لم يجده شيئًا؛ أيْ: فقدَه؛ لأنّه معَ الدُّنوّ لا يرى شيئًا، فتتضاعَفُ لذلك حَسْرَتُه، ويَشتد يَأسُه وقنوطُه، وتغلي مراجلُ غيظِه وظَمَئِه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

وليس هذا وحسب؛ بل إنّه يجدُ نفسَه فجأةً أمامَ هولٍ رهيبٍ يُمسِكُ بتلابيبه، ويقوده إلى المحاسبةِ على ما سلفَ من أعمالِهِ السَّيّئةِ، ووجهُ الشّبهِ بينهما؛ اجتماعُهما في بُطلان المُتوَهّم من نفعهم منَ الأعمال التي قدّموها في الدّنيا؛ لأنّ الكافر الجاهل الذي لا يَدري الأمورَ، يظنُّ أنّ أعمالَه نافعةٌ فتَغَرّهُ صورتُها، مع أنّه مُحتاجٌ إليها كاحتياجِ الظّمآنِ للماءِ، حتّى إذ قَدِمَ على أعمالِهِ يومَ الجزاءِ، وجدَها ضائعةً ولم يجدها شيئًا، فلا يجد لها أثرًا من ثوابٍ أو تخفيفِ عذابٍ، والحالُ أنّه لم يذهب لا لَهُ ولا عليه؛ بل وجَدَ اَللّٰه عِنْدَهُ فوَفّاهُ حِسابَهُ.

غرض التّشبيه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾:

إخراجٌ لما لا تقعُ عليه الحاسَّةُ إلى ما تقع عليه

لهذا التّشبيهِ القرآنيِّ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ غرضٌ بليغٌ مَفادُه تقريرُ حالةِ المُشَبّه به في ذِهْن السّامع، وهو إخراجُ لما لا تقع عليه الحاسَّةُ إلى ما تقع عليه، وهو مِن تشبيه المعنى بالصّورة، وهو مِن أبلغ صور التّشبيه لتمثيله المعاني الموهومة بالصّور المُشاهَدة[1]، ويوضِّح هذا المعنى ابنُ عاشور بقوله: "والحالةُ المُشبَّهةُ مُركَّبةٌ مِن مَحسوسٍ ومَعقولٍ، والحالةُ المُشبَّهُ بها حالةٌ مَحسوسةٌ؛ أيْ: داخلةٌ تحتَ إدراكِ الحواسِّ"[2]، وبيانُ ذلك: أنّه أخرج ما لا تقع عليه الحاسّةُ إلى ما تقع عليه، كما سبق ذكره في إجراء التّشبيه التّمثيليّ.

وجهُ تشبيهِ أعمال الكفّار بالسَّرابِ دونَ غيرِه:

الكافرُ يتعلّق بالظُّنونِ والأوهامِ إلى أن يُدركَه الخُسران

شُبِّهت أعمالُ الكفّار بالسّراب دونَ غيره في قوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ لوجهيْن؛ **أحدهما**: أنَّهم قد عملوا في الظّاهر أعمالًا طمعوا أن يصلوا إليها في الآخرة، وينتفعوا بها من نحو الصَّدقات

(1) ابن الأثير، المَثَل السّائر: 2/ 130.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

والنَّفقات وصِلَة الأرحام، ونحو ذلك ممّا هي في الظّاهر أعمالُ خيرٍ، فإذا هم قد حُرموا أجرَها ولم يجدوا شيئًا كالذي يرى السَّراب من بعيدٍ يحسبه ماءً فيسير إليه، فإذا هو لا شيء؛ فعلى ذلك عمل الكفّارُ تلك الأعمال على طمعٍ منهم أنَّهم ينتفعون بها؛ لكنّهم كالظّمآن الذي يرى السَّرابَ فيحسبه ماء، فإذا هو سرابٌ[1]، **والثّاني:** لمّا عبدوا الأصنام والأوثان رجاءَ أن ينتفعوا بشفاعتهم في الآخرة؛ كقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، وقولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، وكانت عبادتهم لما ذكروا من شفاعتِهم عند الله ثمّ لم ينتفعوا، فصاروا كالعطشان الذي يرى السَّرابَ يحسب أنَّه ماء؛ فإذا جاءه وجده سرابًا؛ ولم يجده ماءً كما حسبه، إلى تمام المَثل[2]، وفي هذا دليلٌ على خيبة أملهم في الآخرة وضياعِ ما كانوا يرجون منه المنفعةَ في وقت الشِّدَّة التي يبحثون فيها عنِ النّجاة.

نُكْتَةُ تنكير ﴿كَسَرَابِۭ﴾:

مجيءُ لفظ ﴿كَسَرَابِۭ﴾ بالتّنكير يُنبئ عن سرابٍ ضئيلٍ تافهٍ بخلاف ما لو جيء به مُعرَّفًا، ووراءَ ذلك ما وراءه من تَعَلُّق نفسِ الظَّمآن بالأمل، ولو كان ضعيفًا تافهًا، ويدلُّ أيضًا على شِدّة خيبة الكافرين؛ لشِدّة لهفتِهم على تمسُّكهم بهذا السّرابِ كطَوْق نجاةٍ.

الإشارةُ إلى كون السَّرابِ ضئيلًا تافهًا، ومع ذلك تتعلّقُ به نفسُ الظَّمآنِ بالأملِ

نُكْتَةُ تنكير ﴿بِقِيعَةٖ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿بِقِيعَةٖ﴾ لكون السَّراب مُنتقلًا مُتعددًا، فليس سَرابًا واحدًا في بقعة معيَّنة؛ بل هو منتقل في بقاع شتَّى[3]؛ لأنّ القاع ما انبسط منَ الأرض؛ فهي أرضٌ سهلةٌ مستويةٌ، لا ارتفاعَ فيها ولا انهباط، وكلُّ موضعٍ فيها يجوز أن يُطْلَق عليه قاعٌ.

لتعدُّد السَّرابِ وتنقُّلِه بينَ بقاعٍ شتَّى

(1) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 98.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 575.
(3) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 575.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِقِيعَةٍ﴾:

للدّلالة على معنى الإلصاق

لمّا كان السَّراب هو ما تَرَقرَق منَ الهواء في الهجير في فيافي الأرض المُنبسطة؛ وكأنَّه ملتصقٌ بها؛ جيءَ بالباء الدّالّة على الإلصاق في قوله تعالى: ﴿بِقِيعَةٍ﴾؛ للتَّعبير عن هذا المعنى، ولو قيل: (كسرابٍ في قيعةٍ) لدَلَّ ذلك على أنَّ القيعة كالظَّرف للسَّراب، وأنَّ السَّراب داخلُ القيعةِ وهو ليس كذلك؛ لأنّ (في) الظّرفيّة تُفيد معنى الحفظِ للمظروف، وهذا غيرُ مُرادٍ، ولهذا اشتُرِطَ في السَّراب أن يكون مُلتصقًا بالأرض[1].

سِرُّ وصفِ السّرابِ بأنّه ﴿بِقِيعَةٍ﴾:

بيانُ الوصفِ الكاشفِ لموضعِ السَّرابِ الذي لا يكون إلّا فيه

القيعةُ جمع (قاع)؛ وهو أرضٌ سهلةٌ مُطمئنَّة ملساءُ مستويةٌ يخْفق فيها السّراب[2]، وقال الأزهريُّ: "والقاع ما انبسط منَ الأرض واتَّسع، وفيه يكون السَّراب"[3]، والجارُّ والمجرور ﴿بِقِيعَةٍ﴾ وصفٌ كاشفٌ لـ (سراب)؛ لأنّ السَّراب لا يتكوّن إلّا في قيعة، وهذا كقولهم في المثل للذَّليل: "هو فقْعٌ في قُرقُر"، فإنَّ الفَقْعَ لا ينبت إلّا في قُرقُر[4].

وفي وصف أعمالهم بالسّراب إشارةٌ إلى ذَمّ أعمال الكافرين مهما كان ظاهرها الخير؛ لأنّ القاع يُطلَق على المكان المنخفض في الأرض، وفي هذا إشارةٌ إلى خفض أعمالهم، وأنّها لا ترتفع إلى درجة أعمال المؤمنين؛ لأنّها كالسّراب في الأرض المنخفضة، فلا وزنَ لها.

سِرُّ اصطفاءِ لفظِ الحِسْبان والتَّعبير بفعله مُضارعًا:

لهفة الظّمآن وحرارة شوقه إلى الماء المتُجدِّدة والمُستمرة تُغطّي على عقله

اصطفى القرآن الكريم التَّعبير بالحِسْبان في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ دون الفعل (يظن)؛ لوجود فرق بينهما؛

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 254، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 326.
(2) ابن دُريْد، جمهرة اللُّغة: (عقي)، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوع).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 252.

فالحِسْبانُ هو أن يحكم الحاسِبُ لأحد النَّقيضيْن من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسِبه ويعقد عليه الأصبع، ويكون بعَرَض أن يعتريه فيه شك، أمّا الظنُّ فهو أن يخطر النَّقيضان ببال الظّانِّ، فيُغلِّب أحدهما على الآخر تغليبًا لا يصل إلى اليقين؛ ولذلك كان التَّعبير بالحِسْبان هو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّ الظَّمآن عندما رأى السَّراب حَسِبَه ماءً، ولم يخطر بباله أبدًا أنَّه نقيض الماء، فعقد عليه العزم، وراح يلهث وراءه[1].

وفى التّعبير به إشارةٌ إلى خداع النَّفس بعد خداعِ البصر بهذا السَّراب؛ فإنَّ لهفة الظَّمآن، وحرارة شوقه إلى الماء تغطي على عقله، فيحسب السَّراب ماء، مثله في ذلك مثل الخائف المذعور في سواد اللَّيل ووحشته، يُمثِّل له الوهم أشباحًا تطلع عليه من كلِّ أفقٍ، تُريد الانقضاض عليه والفتك به، ولهذا اختار سُبحانه للتَّعبير عن هذا المعنى ﴿يَحْسَبُهُ﴾ دون (يظنُّه)، وجيء به على صيغة المضارع؛ ليُفيد معنى التَّجدُّد والاستمرار.

تخصيص الحِسْبان بالظَّمآن:

الـظَّـمـآن أشـدُّ حِرْصًا على طلب الماء

جاء التّعبير القرآنيُّ بتخصيص الحِسْبان بالظّمآن في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ دون الرّائي؛ لأنّ الظّمآن وصفٌ لشَّديد العطش[2] هو أكثر إلحاحًا على طلب الماء؛ لذلك كان تخصيص الحِسْبان بالظّمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائنًا مَنْ كان من العطشان والرَّيان؛ لتكميل التَّشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشَّبه الذي هو المطلع المطمع، والمقطع الموئِس[3]، ولو قيل يحسبه الرّائي ماء ثُمَّ يظهر أنّه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا، وأبلغ

(1) ابن سيدَه، المُخصَّص: 4/ 174، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 400، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 301.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 284.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 109، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.

منه لفظ القرآن؛ لأنَّ الظمآن أشدُّ حِرْصًا على الماء من الرّائي، وقلبُه أكثرُ تعلُّقًا به منه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالغةِ في ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ دون الظّامِئ:

الـدّلالـةُ على اللهفةِ والتَّحرُّقِ وشِدَّةِ الحاجةِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ دون الظّامئ؛ لما ينطوي عليه هذا اللّفظ من معنى المُبالغة، ولأنّه يوحي بمعنى اللهفة والتَّحرُّق وشِدَّة الحاجة، ثُمَّ شِدَّة الإعياء والخيبة، وهذه الصّيغة تُكْسِبُ الصّورةَ ثراءً وخصوبةً، ويُعطيها بُعْدًا وعُمقًا، يجعلها أقدرَ في التَّعبير والإيحاء على الحالة العجيبة الحاصلة لَمن هذا حالُه[2]؛ بخِلاف صيغة اسم الفاعل (الظّامِئ).

بلاغةُ الاستعارة:

تشبيهُ خيبةِ الكافرِ عند الحسابِ، بخيبةِ الظّمآن عند مجيئِه السَّرابَ

تظهر بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيه تعلُّق الظّامِئ بالسَّراب، وظَنَّه أنّه طوقُ نجاةٍ؛ لأنّ الماء سبيلُ الحياة منَ الموت، وهذا ما يُفيده قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾؛ فهو أحدُ أركان التَّمثيل، وهو مُشابهُ الكافرِ صاحبِ العملِ؛ وقد ضُرِب ذلك مثلًا لقُرب زمنِ إفضاءِ الكافر إلى عمله وقتَ موتِه حين يرى مقعدَه، أو في وقت الحشر، وقولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ من تمام التّمثيل؛ أيْ: لم يجد الماءَ، ووجدَ في مَظِنّة الماء الذي يَنتفع به مَن إنْ أَخَذَ بناصيته لم يُفْلِتْهُ[3]، فأعمالُ الكافرين شبيهةٌ بالسَّراب في أنّ لها صورةَ الماءِ وليست بماء، والكافر يُشبُه الظّمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، ففي قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، وخيبةُ الكافرِ عند الحساب تُشْبِهُ خيبةَ الظّمآن عند مجيئِه السّراب؛ ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ[4].

(1) الرُّمّانيّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص: 82.
(2) عتيق، علم البديع، ص: 93.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 254.

بلاغةُ الحذفِ في التَّمثيلِ:

الإيجازُ ومُراعاةُ المقامِ

في الجملةِ الكريمةِ: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ مُقَدَّرٌ محذوفٌ مفهومٌ مِنَ السّياق، تقديرُه: فيقصِدُه ليُزيلَ ظمأَه، ولا يزالُ سائرًا حتَّى إذا جاءَه لم يجده شيئًا[1]، وهذا إيجازٌ واقتضابٌ لوضوح المعنى المُراد به، ولأنَّ مقامَ التَّمثيل يحتاج إلى الاختصار في العبارة.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وأثرُه في المَثَل:

الدّلالةُ على الغايةِ المُشيرةِ إلى أوّلِ موضعٍ لتخيُّلِ الماءِ

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ على أنّ الظّمآنَ قطعَ مسافاتٍ طويلةً باحثًا عنِ الماء، وفي هذا تصويرٌ للعناءِ الذي يُلاقيه في بحثِهِ عنِ الماء؛ فكلّما اقترب منَ الموضع الذي تخيَّل أنَّه إن وصل إليه يجد ماءً ويحسبه قريبًا لِما في استواء الأرض من خِداع قُربِ المسافة، وكلّما ظَنّ الاقترابَ وجدَ السّرابَ لا يزال يلوحُ له على بُعْدٍ كُلَّما تقدَّم السّائرُ في سيره، فالغايةُ مشيرةٌ إلى أوّل موضعِ التَّخيُّل؛ لأنّ المَثل مضروبٌ لقُرب زمنِ إفضاءِ الكافر إلى عمله وقتَ موتِه حين يرى مقعدَه، أو في وقت الحشر[2]، من عدم وجدان عملِه عينًا ولا أثرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

سِرُّ التّعبيرِ بالماءِ ودلالةُ التّنكيرِ فيه:

تعلّق أملِ الظّمآن بالماء في الصّحراء للنّجاة منَ الهلاك، وإن كان ذلك الأملُ قليلًا

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالماءِ في قولِه تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾؛ لأنّ الماءَ سينُجيه منَ الموتِ؛ حيثُ إنّه يمشي في صحراءَ لا زرع فيها ولا ماء، فيخشى الهلاك؛ فيتعلّق أملُه بالماء، وإن كان ذلك الأملُ قليلًا؛ دلَّ على ذلك تنكير لفظ الماء، ومع ذلك الأملِ القليل يسيرُ الظّامئ ويسير؛ أملًا في الوصول إلى الماء.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 285، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 674.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.

سِرّ التّعبيرِ بالمَجيء دونَ الإتيان:

للدّلالةِ على الصّعوبةِ والمخاطرِ التي تعترضُهُ في رحلتِهِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالمَجيءِ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ دونَ الإتيان؛ لما يحمله المَجيءُ من صعوبةٍ تُميِّزُه عن الإتيان، وهذا ما يتناسب مع هذا السّياق؛ حيثُ إنّه يصوّر رحلةَ الظّامئِ في سفره بحثًا عنِ الماء، وما يحمله هذا السّفر من خطورةٍ ومهالك قد تُؤدّي به إلى الموت الذي يخشاه.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾:

محاولةُ تكرارِ الظَّمآنِ البحثَ عنِ الماء مَرّةً بعد مَرّةٍ دونَ وصولِهِ إلى بارقةِ أملٍ

دلّ التّعبير بالمضارع المَنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ على محاولة تكرار الظَّمآنِ البحثَ عنِ الماء مَرّةً بعد مَرّةٍ، دونَ وصولِه إلى بارقةِ أملٍ، وفي هذا تصويرٌ لعدم استكانته؛ بل بَذْلِ كلِّ جَهْده للوصول إلى الماء، ولكنّ خيبة الأملِ سارعت في وجهه؛ لترسمَ له النّهاية المُؤلمة؛ بأنّه لن يجد ما يرويه، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ النّفي جاء بـ ﴿لَمْ﴾ التي تحوّل المضارع إلى ماضي، وفي هذا دليلٌ على عدم وجود الماء أصلًا حتّى يبحث عنه؛ بخلاف التّعبير بحرف آخر من حروف النّفي، فقد يُفْهَم منه أنّه كان موجودًا ثمّ ذهب، وهذا غيرُ مُراد.

دلالة ذِكْر الهاءِ في قولِهِ: ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾:

نصٌّ على الأملِ المنشودِ المعدومِ، وتهيئةُ الكلامِ لما بعدَه

جيءَ بالهاء في قوله: ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾، وكان يمكن أن يُقال: (لم يجد شيئًا)؛ ولكنَّ ذِكْرَ الهاءِ نصٌّ على الأمل المنشود وصَيْرِه عدمًا، وفي ذلك إبرازٌ للمَغْزى وخيبةِ الأمل، وشيءٌ آخر في ذِكْر هذه الهاء، وهو تهيئة الكلام لما بعدَه؛ لأنَّه لو قيل: (حتَّى إذا جاءه لم يجد شيئًا)؛ لكان ذلك مُتناقضًا مع قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾.

دلالةُ النَّفي بعد الإثباتِ في ضَرْبِ المَثَلِ:

كونُ السَّرابِ شيئًا يُرى مِن بعيدٍ وإنْ لم يكنْ له جِرْمٌ في الواقعِ

النّاظرُ في قَولِ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ يجدُ إثباتًا في قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ فهو يدُلُّ على كونِه شيئًا، ونفيًا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، وظاهرُ ذلك قد يُفهَمُ منه التَّعارضُ؟

والجواب على ذلك مِن وجوهٍ ثلاثة؛ **الأوّل**: أنَّ المُراد معناه: أنَّه لم يَجِدْه شيئًا نافعًا، كما يُقالُ: (فلانٌ ما عمِل شيئًا)، وإن كان قد اجتَهد، **الثّاني**: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أيْ: جاء موضعَ السَّرابِ، لم يَجِدِ السَّرابَ شيئًا؛ فاكتفَى بذِكْرِ السَّرابِ عن ذِكْرِ موضعِه، **الثّالث**: الكنايةُ للسَّرابِ؛ لأنَّ السَّرابَ يُرى مِن بعيدٍ بسببِ الكثافةِ كأنَّه ضبابٌ وهباءٌ، وإذا قرُب منه رَقَّ وانتشر، وصار كالهواءِ؛ فالمُراد: جاء الشَّيءَ الذي تخيَّلَ أنَّه ماءٌ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ الماءِ بالشَّيءِ:

بيانُ كونِه عدمًا مَحضًا

كان يمكنُ أن يُقال: (لم يجده ماء)؛ ولكنّه تعالى قال: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، فلفظُ ﴿شَيْـًٔا﴾ جعلَه عدَمًا محضًا؛ أيْ: ما كان يُخيّل إلى عينه أنَّه ماءٌ لم يجده شيئًا، والشَّيء: هو الموجود وجودًا معلومًا للنّاس[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾:

إفادةُ التَّعميمِ والشُّمولِ لمُطلَقِ الماءِ قليلِه وكثيرِه، مع إفادةِ التَّهويلِ لجزائِهِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أيْ: منَ الأشياء، فلم يُفِدْهُ قَصْدُه غيرَ زيادةِ العطش بزيادةِ التَّعبِ، وبُعدِه عن مواطنِ الرَّجاءِ، فيَشتدّ بأسُه، وتنقطع حيلُه فيهلِكُ[3]، فقد كان يَظُنُّه ماءً فُراتًا يَرويه إذا شَربه[4]، فوجَدَ المُفاجأةَ المُذهلةَ التي لم تخطرْ له ببالٍ، المُرعبةَ التي تقطعُ الأوصالَ وتورثُ الخَبال[5]؛ حيثُ لم يجد قليلَ الماءِ ولا كثيرَه؛ بل لم يجد شيئًا ممّا يروي ظمأه، ولو كان من قطرات النّدى التي توجَد على أوراق الشّجر.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 327، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 399، والشِّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 169.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 284.
(4) عبد الكريم مدرس، مواهب الرَّحمن، ص: 63.
(5) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 18/ 3624.

فائدة الشَّرطِ وجوابِه في الجملةِ الشَّرطيَّةِ، وموقعهما منَ التَّمثيلِ السّابقِ:

بيانُ الخُسران المُبينِ في ربطِ العدمِ المَحضِ بالسّعي الدّؤوبِ

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ يعني: حتَّى إذا جاء الظَّمآنُ ما حَسِبَه ماءً - وهو السَّراب - وعلَّق به رجاءَه؛ لم يجده شيئًا أصلًا، لا مُحقَّقًا ولا مُتوهَّمًا كما كان يراه قبلَ المَجيء، وهي جملةٌ شرطيَّةٌ مُؤلَّفة من عبارتيْن؛ الأولى شرطيَّةٌ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾، والثّانية جوابيَّة: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، أمّا العبارة الشَّرطيَّة فقد أشارت بدخول ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على ﴿إِذَا﴾ إلى نهاية رحلةٍ شاقَّةٍ ومُعاناةٍ طويلةٍ أجهدَه فيها الظَّمَأُ، وحَفَّزه إليها الأملُ، وأفادت باستعمال ﴿إِذَا﴾ أنَّ الشَّرط قد تحقَّق في نهاية هذه الرِّحلة[1]، وأمّا العبارةُ الجوابيَّةُ فقد جيء بها بلفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعولاً به ثانيًا لقوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾؛ ليُفيد معنى العدم، فرُبِطَ هذا العَدَمُ المَحضُ بذلك السَّعي الدّؤوب في هذه الجُملة الشَّرطيَّة؛ بيانًا وتوضيحًا لذلك الخُسران المُبين الذي لا ربحَ بعدَه، وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾:

دخولُ الجملةِ في التَّشبيهِ السّابقِ المَذكورِ تكملةً له

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عطفتْ هذه الجملة على قوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾، فهي داخلة في التَّشبيه؛ لأنَّه من تَتِمَّة أحوالِ المُشَبَّه به، وهو أبلغ؛ لأنَّ خيبة الكافر أدخل وأعرق؛ أيْ: ووجدَ الله تعالى مُحاسبًا إيّاه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ ﴿عِندَهُۥ﴾:

زيادةُ التَّهويلِ للجزاء، وتقريرُ حُكمه

قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أيْ: عند هذا السَّراب؛ لأنَّه وصل إلى الموت فوَجَدَ الله له بالمِرْصادِ؛ فقَدِمَ على الله بحضور أجله، هذا المُراد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 394.

بالعنديَّة، وليس أنَّ اللّه تعالى في نفس المكان؛ فالمعنى: أنَّه حضر أجلُه فوفّاه حسابَه، والعنديَّة بمعنى الحِساب؛ لذِكر التَّوفيَةِ بعدُ بقوله سبحانه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، وفي التَّعبير بذلك زيادةُ تهويلٍ[1].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾:

ذُكِرت تَوفيَةُ الحسابِ بالفاء المُفيدةِ لكونه عقيبَ المَجيء المَذكور[2]، فهو بعد أن تَعِبَ في العمل لم يجد له جزاءً إلّا العذاب بمنزلة مَن ورد الماءَ للسّقي فوجد مَن له عنده ترَةٌ فأخذه[3]، فتكون التَّوفيَةُ هكذا في سُرعة عاجلةٍ تتناسق مع البَغْتَة والمُفاجأة[4].

التَّعقيبُ بالتَّوفيةِ في سُرعةٍ عاجلةٍ تتناسبُ مع البَغْتة والمُفاجأة

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قوله تعالى: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أيْ: أعطاه جزاءَ كُفره وافيًا؛ فدلَّ الفعل ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ على أنَّه لا تخفيفَ فيه[5]، كما أنّ في ذِكر التَّوفيَة بيانًا لبقيَّةِ أحوالِهم العارضةِ لهم بعدَ ذلك بطريقِ التَّكملة؛ لئَلّا يُتوهَّمَ أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فحسب، كما هو شأنُ الظَّمآنِ[6]، وفيه إشارةٌ إلى دفع تَوَهّم وجودِ النّقص في المحاسبة مع سُرعة الحساب؛ يُؤكّد ذلك التّضعيفُ المَذكورُ في قوله: ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ الّذي يدلُّ على كمال التّوفيَة.

تكملةُ الجزاء لهم دفعًا لتوهُّم أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فحسب

دلالةُ إفرادِ الضَّمائر في الجُملة الكريمة:

إفرادُ الضَّميرَيْنِ ﴿وَوَجَدَ﴾، ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ الرّاجعَيْنِ إلى الَّذين كَفروا؛ إمّا لإرادةِ الجنْسِ؛ كالضَّمانِ الواقعِ في التَّمثيلِ؛ وإمّا للحَملِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يَرجِعُ إلى أعمالِهم[7].

إرادة الجنسِ مع الحَملِ على كلِّ واحدٍ منهم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 52، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372، وابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 275.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 397.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 253.
(4) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 18/ 3624.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 253.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.
(7) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.

بلاغةُ التّعبير بقوله: ﴿حِسَابَهُۥ﴾:

كمالُ عدلِ اللهِ في معاملة خَلْقه

يُبْرِز هذا التّعبير ﴿حِسَابَهُۥ﴾ دونَ (عقابَه) أو (عذابَه) كمالَ الإنصاف؛ فلم يُعَذِّبه إلّا بعد المحاسبة، وهذا دليلٌ على عدالته سبحانَه في معاملة خَلْقه؛ بخلاف التّعبير بالعذاب أو العقاب؛ فقد يُفْهَم منه أنّه تَمّ بغير محاسبة، وهذا غيرُ مُرادٍ؛ لأنّ اللّه مِن صفاته أنّه العَدْل.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ (الله):

التّعظيمُ وتربيةُ المهابةِ

ذُكِرَ الاسمُ الجليل في مقام الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لما فيه من التّعظيم وتربيةِ المَهابة ومن تهويلٍ لحالِ الحسابِ لهؤلاءِ الكفّارِ عند اللّهِ وما ظَنُّكَ بمَن عاداهُ اللّه!

سِرُّ التّعبير بـ(السُّرعة)، ودلالةُ تقديم ذِكْرِها:

الإشـــارةُ إلى السُّرعة الزَّمنيَّة والعـمـلـيَّـة في المُجازاة

وصفَ اللّهُ ﷻ نفسَه بأنّه ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فلا يَشْغَلُهُ حسابٌ عن حساب يُتِمُّه في أسرع ما يكون منَ الزَّمان، فيوفّي الجزاءَ بحسبه، والمُراد بالسُّرعة بالآية: هو قُرب وقتِ المُجازاة، فتكون السُّرعةُ زمنيَّةً، ويُحتمَل أن يكون المُرادُ بالسُّرعة - أيضًا - إنجازَ الحسابِ، فتكونَ السُّرعةُ عمليَّةً؛ والمعنى: أنَّه تعالى في مُحاسبته لهم سريعٌ، فحِسابُه للعِباد قريبٌ حتَّى وإن طالت الدُّنيا بالإنسان كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النّساء: 77]، وكذلك عندما يُحاسِبُ اللّهُ الخلائقَ يومَ القيامة فإنَّه يُحاسبُهم قَدرَ نصفِ نهارٍ من أيام الدُّنيا[1]؛ وهو سريع الحساب؛ لأنّه لا يحتاج إلى زمنٍ، ولأنَّه لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ[2]؛ لأنّ تطويل الحساب يكون

(1) ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «يومَ يقومُ النّاس لربّ العالَمين مقدارُ نِصفِ يومٍ من خمسين ألفَ سَنَةٍ، فيهونَ ذلك على المؤمن كتدلّي الشّمس للغروب إلى أن تغرب»، أخرجه أبو يعلى في مُسنده، برقم: (6025)، وابن حبّان في صحيحه برقم: (7333)، وصحّح إسنادَه المنذريّ في التّرغيب والتّرهيب: 2/ 295.

(2) حقّي، روح البيان: 6/ 162، وابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 276.

عادةً من عدم عِلْم المُحاسِب؛ فيُبْطِئُ ليَعرفَ ملابساتِ الحساب الزّمانيّةَ والمكانيّةَ، أمّا إذا كان المُحاسِبُ العليمَ الحكيمَ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء؛ كان حسابُه سريعًا، وفي هذا التّعبير دلالةٌ على طَلاقة القُدرة والعدالةِ النّاجزة؛ للتّفريق بين عدالة الأرض وعدالة السّماء.

دلالةُ التّذييل في الآية الكريمة:

بيان عِلَّة الحُكم المذكور المُفاد منَ التَّوفيةِ السّابقةِ

جُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تذييلٌ لما سَبَقَ، فالمُراد: أنَّه تعالى لا يُماطِلُ الحِسابَ ولا يُؤخِّرُه عندَ حُلولِ مُقْتضيه[1]؛ فالجملةُ تذييليَّةٌ تكميليَّةٌ، مسوقةٌ لتعليل ما قبلَها، جاءت لبيان عِلَّةِ الحُكم المَذْكور المُفادِ بقولِه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾؛ لأنَّ سُرعة الحساب تستدعي سرعةَ الجَزاء[2].

المُتشابهُ اللّفظيُّ بين سورتيْ إبراهيم والنّور:

تشابَهَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ الآية، مع قولِه في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: 18].

وهذا التّشابه ظاهرٌ في ضرب المَثل لأعمال الكافرين بالسَّراب في سورة النّور، وبالرَّماد في سورة إبراهيم؛ لأنّ صورة السَّراب تهتمُّ بتصوير اللهفة والرَّغبة الماسَّة للوصول إلى المطلوب، وصورةَ الرَّماد تهتمُّ بتصوير ذهابِه واحتراقه.

كما أنّ صورة السَّراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، وإن كانت تشترك في الموضع مع صورة الرَّماد الذي تعصف به الرّيحُ في المَثل السّابق، إلّا أنَّها تختلف عنها اختلافًا دقيقًا ومُهمًّا؛ وذلك في المغزى ولُبّ الغرض، وبيان ذلك: أنَّ صورة السَّراب تهتمُّ بتصوير اللهفة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 254.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن: 19/ 358.

والحاجةِ الماسَّةِ إلى الوصول إلى المطلوب والانتفاع بهذه الأعمال، ثُمَّ الخيبة والمُفاجأة بخديعة الأمل، وأنَّه ما كان إلّا وهْمًا؛ ولهذا كانت عناصرها: الظَّمآنَ، والسَّرابَ، وهذان اللَّفظان لهما دلالةٌ قويَّة على هذا المَغْزى؛ بل إنَّ لفظ السَّراب يكاد يكون رمزًا حيّا في هذا الباب.

أمّا صورةُ الرَّماد فإنَّها تهتمّ ببيان ذهاب الأعمال وعدم الانتفاع بها، وأنّها تصير بَدَدًا، من غير أن تُرَكّز الآيةُ على معنى اللهفة والتَّعلُّق الذي ركَّزت عليه صورةُ السَّراب؛ ولهذا كانت عناصرها: الرَّمادَ، والرّيحَ، واليومَ العاصف، وكلّها تُؤكِّد معنى الضّياع الذي يَعْقِبُه الهلاكُ، إضافةً إلى ما ينطوي عليه لفظُ الرَّماد من معنى الاحتراق والخِفَّة وقِلَّة الشَّأن[1].

وممّا يُذْكَر في تشابه الآيتيْن أنّه قال في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [إبراهيم: 18]، ولم يَقُلْ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كما في سورة النّور؛ لأنّ المَثل مُستعملٌ للصّفة التي فيها غرابة، وهذه الغرابةُ ظاهرةٌ مِن كثرة النّعم التي أنعم اللّهُ بها، ومع ذلك قوبلت هذه النِّعَمُ بالكُفر على غير منطق العقل، فضلًا عن منطق الشّرع، وممّا يُؤكّد ذلك أنّه ورد في سورة إبراهيم: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 18]، ولم يُذْكَر في سورة النّور؛ لأنّ سياق سورة إبراهيم يناسبُه التّعبير بالرّبوبيّة، ويُؤكِّد ذلك خطابُ اللّهِ لموسى ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 5] إلى قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7] الآية، وكان المناسبُ لذلك شُكرَ النّعم، لكنّ الكافرين أعرضوا عنها، وصار ذلك مثلًا يُضرب لهم؛ بخلاف موضعِ سورةِ النّور، فلم يَرِد فيها مثلُ ذلك الحديث؛ لأنّ الآية التي كانت قبلَها تتحدّثُ عنِ الجزاء لأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، ثمّ عطف عليها أحوالَ الكافرين دونَ أن يجعلَهم مثلًا كما في سورة إبراهيم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحِسْبان والظَّنّ:

الحِسْبان أن يُحكم لأحد النَّقيضيْن من غير أن يخطر الآخر بباله، فيَحْسِبه ويعقد

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 245، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9804.

عليه الإصبع، ويكون بغرض أن يعتريَه فيه شَكٌّ، ويُقارب ذلك الظّنُّ، لكنّ الظّنَّ أن يُخطر النَّقيضيْن بباله، فيُغلِّب أحدَهما على الآخر[1].

الظّمأ والعطش:

أصلُ الظَّمأ يَدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّةِ ماءٍ؛ وهو العَطَشُ وذهابُ الرُّطوبة والنَّدى من باطن الشَّيءِ واضْطِمامه على هذا الجفاف[2]، يُقال: ظَمِئَ ظَمَأً: إذا اشتدّ عطشُه[3]، والعَطَشُ: حالةُ شوقٍ إلى شُرْبِ الماء، فالظَّمآنُ كعطشان صفة مُشبَّهةٌ، وهو الذي يكون متَّصِفًا بحالة حرارة داخليّة، توجِبُ العطشَ وطَلَبَ الماءِ[4].

الحِسْبان حُكْمٌ لأحد النَّقيضيْن دون خطورِ الآخرِ بالذِّهنِ، والظَّنُّ خُطورهُما جميعًا

الـظَّـمـأ شِـدَّةُ العطش وظهورُ أثـرِه على البدنِ بـالـجـفـافِ وذهابِ الرُّطوبةِ

(1) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظما)، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظمأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظمأ).
(4) المُصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 7/ 179.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»